حول ديوان الزبيري

«ثورة الشعر»

بقلم قاسم الوزير

لكأنما كانت اليمن على ميعاد مع القدر .. لتخرج الى النور سافرة عن وجهها الجميل الاصيل الذي حجبته قرون من العزلة والظلام .. لقد كان من الواجب ان يتم هذا من زمان بعيد ، ولكن المأساة الرهيبة التي غلفت ذلك الجزء من العالم العربي — كانت من الكثافة بحيث لا تعكس الا ذاتها .. من جانبها القاتم المظلم حتى لقد تصور الناس — الى حد الاقتناع — انه لا يوجد في اليمن غير جزار متوحش ، وقطيع من الغنم يعمل فيه ذبحا وتقتيلا .. ولم تكن تلك هي الصورة الحقيقية ، على اية حال ، انما هي من الجانب القاتم من الصورة فقط . فلقد كان هنالك جزار ، ولكن لم يكن هناك قطيع .. وانما كان ثمة شعب يمارس الثورة ، ويتحدى الجزار ، ويصنع التاريخ وانه لغباء اجرامي ذلك الذي يجعلنا نسلط الضوء دائما على دور الطغاة في سحق الشعب ولا نسلط الضوء في نفس الوقت على دور الشعب في سحق الطغاة فلا يعني هذا اهدار قيمة الشعب والاقلال من اهميته بقدر ما يعني التمهيد لتضخيم دور البطل في تحرير الشعب .. على الجانب الاخر .. كانما الشعب قوة سائبة بين طاغية يسحقه وبطل يحرره .. اما هو اما الشعب فان دوره ليس الا ان يستسلم لذلك ويهتف لهذا ؟!..

ما هو دور الشعب ؟ ذلك هو السؤال .. والذي يعكس ذلك الدور عادة ، انما هو الفن ، والفكر والادب ولكن اذا كان الناس قد جهلوا ذلك الكفاح نفسه .. فاني لهم ان يعرفوا ذلك الكفاح وفكره ؟ من هنا ظل ذلك الادب وذلك الفكر غير موجودين بالنسبة للقاريء خارج الحدود .. وللناقد .. والمؤرخ .. ولقد يدهش احدهم اليوم ، ان يعرف ان المثقفين .. ورجال الفكر في اليمن قد استطاعوا ان يفجروا ثورة عربية ، من الثورات النادرة ، قبل خمسة عشر عاما ... وهو الدور الذي لم تضطلع به فئة المثقفين في اي بلد عربي ، حتى الان فيما عدا الجزائر .. ان من يملك منهجا ثوريا اصيلا ، فانما هو بالضرورة ، يصدر في ذلك عن ثقافة حية وفكر موضوعي واع .. ولكن من يضع ذلك المنهج موضع تنفيذ فانه يكشف عن ان تلك الثقافة وذلك الفكر قد بلغا عنده غاية النضج والاستواء .

وتلك صفحة مشرقة من تاريخ اليمن طوتها يد الظلام ككل الصفحات المشرقة من ذلك التاريخ .

وفي الحق ان الشعر في اليمن كان اكثر فنون الادب دويا وازدهارا ، واداء لرسالته .. وبين يدى الان ديوان « ثورة الشعر » الذى صدر حديثا للشاعر اليمني الكبير محمد محمود الزبيري .. والزبيري شاعر كلاسيكي فذ .. هو شاعر اليقظة اليمنية غير مدافع نسج شعره من اشعة الشروق المغسولة بدماء ضحايا اليقظة .. ثم عكسها باضواء باهرة على طريق القضية التي امن بها فكان بذلك حادى القافلة — قافلة النضال — فترة طويلة . وهو في الشعر ثورة هزت جموده وفكت قيوده وحررته من التعفن ، ووهبت اجنحته ريشا جديدا ضرب بها بعد ذلك ، في الافاق عاليا وقويا .. انه من هذه الناحية بالنسبة للشعر في اليمن ما كان البارودي في مصر . فكلاهما كان صوت البعث .. وكلاهما كان الروح العائد للادب الميت المحنط في توابيت من الزخرفة اللفظية الجوفاء .

وهذا اخيرا « ثورة الشعر » اية ذلك القول ..

ولقد كفانا الشاعر نفسه مؤونة البحث عن مصادر شاعريته وروافد فنه ، والعوامل التي اثرت فيه . وحددت منهجه — بمقدمتين جميلتين صدر بهما الديوان . ولقد يعجب القاريء تصدير الشاعر ديوانه بمقدمتين اثنتين في وقت اصبح الشعراء فيه يؤثرون عدم التقديم لاشعارهم اصلا لكي يسلموها ، بذلك ، للقاريء غير مزودة الابذاتها اي بما تحبل به من معان وتشيع فيها من قوة تفرض نفسها .. الا ان الشاعر قد عمد ، هنا ، الى كتابة المقدمة الاولى — وخيرا فعل — ليروي قصة الشعر معه اوقصته مع الشعر ، حسب تعبيره .. وهو بذلك يقدم نفسه ، في تواضع ، على نحو غير مألوف ولكنه ممتع كما لو كان قصيدة فلقد « تسلم الشعر نفسي — نفس الشاعر — واخذ يوجهها داخل النطاق الروحي دون ان يدري ويغامر بها في تجارب الاحلام ، ويطير بها عبر ضروب عديدة من المسارات ، فشرق بها وغرب ، وشمال وجنب ، واقدم واحجم ، وهادن وحارب واقتحم بها دنيا العصر قفزة طافرة اجتازت القرون في سنين وخاضت مع جيل العصر مختلف الافكار التيارات .. ومصطرع المذاهب الدينية والسياسية والادبية والاجتماعية ..

« وتفاعلت نفسي مع الشعر ، وتفاعل معها ونما خلال نموها ، فكانت طفولتي طفولته ، وشبابي شبابه ونضجي نضجه . وكان يسير جنبا الى جنب حيث اسير فهو ساذج في سن المراهقة ، وطائش عندما اطيش وحزين عندما احزن ، وحالم بالسعادة وقت ما احلم .. اذا لعبت لعب مثلي ، واذا جديت قلد جدي .. وعندما كانت يدي تلعب بقطع الشطرنج للتدريب على فنون الكر والفر والهجوم والدفاع ، كان هو يعبث بروؤس الملوك : يقذفها جوا ويطرحها ارضا ويزغرد بها فرحا . ويثن منها جزعا» .

وهكذا يكشف الزبيري بهذه الكلمات عن حقيقة تهم دارسي شعره وهي : ان شعره ليس الا « عملا عاديا تلقائيا من اعمال القلب واللسان ونتاجا طبيعيا من نتاج الحياة وصدى من اصدائها ، ومظهرا من مظاهرها »

ولست ادري اذا كان ادراك هذه الحقيقة سيحمل الناقد على شيء من التساهل تجاه ذلك النتاج في مختلف اغراضه ، كما يريد الشاعر ، بوصفه عملا تلقائيا .. ام ان ذلك سيحتم على النقد والناقد ، اكثر من ذي قبل ، الاخذ بالشده في التمحيص .. وعدم التساهل في قليل اوكثير ولا اظن اي ناقد يصغي الى احتجاج الشاعر على محاسبه الشعر دون ثرثره اللسان .. فهل الشعر ، حتى ولو كان تلقائيا ، ثرثرة ؟ اذا كان ذلك هو راي الشاعر حقا في شعره او في الشعر عامة فانه يقدم للنقد اول ماخذ قاس ياخذه عليه .. فليس قيمة الشعر اتية من كونه « تجمل وتزين .. وادخل على نفسه فن اللذة وسحر الجمال » فالثرثرة .. تبقى ثرثرة .. ولو مرت على فم داوود .. انما يحاسب الشعر « لانه ـ كما يقول الشاعر نفسه ـ من الكائنات الحية التي ترفض ان تموت »والحياة مسؤولية يحاسب عليها الحي .. ولن يكون منطلق الحديث عن شعر الزبيري خاصة ، الا على هذا الاساس.

اما المقدمة الثانية .. فبالرغم من انها تتناول الشعر كمصدر لليقين الثوري الا انها ، في الواقع عملية تبرير ودفاع يقوم بها الشاعر في مهارة ـ ذلك ان كثيرا من خصوم الشاعر ومن ناقديه قد اخذوا عليه ان شعره قد احرق بخورا كثيرا في مجامر المديح لاصنام المعبد الملكي . وفي الواقع ان ذلك مأخذ لا يستحق من الشاعر كل هذا الاهتمام الذي بذله فانما الشاعر ابن مجتمعه .. ليس عارا على الزبيري اذا هو امتدح في فترات معروفة من حياته ، لان تلك هي السنة التي فتح عليها عينيه في مجتمع يودي الصلاة مرتين : مرة لله بالقرآن واخرى لاعدائه بالشعر ، بل على العكس من ذلك يحق للزبيري أن يفتخر ، لانه كفر بتلك السنة بعد ايمان ... وتمرد على المدح والممدوحين رغم معوقات كثيرة كانت تحول دون التحرر من ذلك الاسار ولانه فتح روحه وفكره لنور الشمس ، ولم يقفلها الا على ظلامهما كما عمل غيره فلما عرف انه الحق صلى له باعذب الالحان .. واذا نذ بعد ذلك ، لحن يمت الى الماضي بسبب فلان هنالك ضرورات كثيرة تفرض علينا احيانا مالا نحب بل وما لا نقدر عليه .. ومن السهل طبعا ان نصدر الاحكام القاسية ونحن ننعم بالامن والدفء .. ولكن سبيل النقد الحق هو ان يضع الناقد نفسه موضع الشاعر ، في مثل ظروفه ، ليكون منصفا في النقد ، اما اذا كان هذا النهج لا يروق لنا .. فلا اقل من ان نوفر على انفسنا عناء نقد لا انصاف فيه ..

ذلك في نظري . هو منتهى القول الحق في مثل هذا اللجج .. لان كل قول سواه لن يزيد في اقتناع من اقتنع ولن يقنع ما لم يقتنع . لانه في هذه الحالة لا يريد الاقتناع ومع ذلك فقد تحمس الشاعر فساق تبريرات شتى وكلاما جميلا يستمد جماله من تلك اللقطات المفيدة عن القضية اليمنية ، اما المبررات .. فقد دفعه الحماس الى اعادتها وتكرارها في صيغ مختلفة افضت احيانا الى بعض التناقض الذي لا يصعب على القاريء ادراكه لقد كان حسب الشاعر قوله : « ليس هناك فرق بين الكثيرين وبيننا الا اننا تغيرنا ولم يتغيروا .. وثرنا ولم يثوروا » ولا حاجة بعد هذا لتبرير او تفسير . ولكن يبدو ان الشاعر قد انفعل لما وجه اليه من نقد . ولعل ذلك الانفعال هو الذي ساق شاعرنا عن غير قصد الى مثل قوله : « ان القضية انما ولدت هناك .. في تعز في شكل قصائد طنانة » ، فبقيني ان الاستاذ لا يعني وهو بالذات ، بذلك « القضية الوطنية » من حيث هي .. ذلك لان القضية كانت قد ولدت قبل ذلك بعهد طويل واطلاق مثل هذا القول هكذا، لا يجني على الحقيقة فحسب بل هو ايضا اهدار لالام المخاض العسير التي عاناها الشعب في ولادته لهذه القضية قبل ذلك الحين . وحتى تفسير ذلك بانه انما يعني القضية بالنسبة له هو يبدو غير ممكن تماما لان هذا اهدار لكفاح الشاعر نفسه قبل اي شيء اخر ، فهو لم يعد الى اليمن من مصر وبالتالي لم يستقر في تعز الا من اجل القضية ذاتها عندما انتدبه اخوانه في القاهرة للاضطلاع بها .. فهل ولدت القضية بعد ان سجن من اجلها مع غيره وعذب عذابا قاسيا واذن فمن اجل اية قضية لقي ما لقي من عنت ـ سجلت قسوته قصائده الجميلة ـ قبل ان تولد هذه القضية؟ ربما كان استاذنا يقصد بذلك الثورة داخل القضية ولكن هذا ايضا غير صحيح .. فكثير هم الذين كانوا قد تجاوزوا مرحلة الاقتناع بالثورة الى العمل من اجلها في تلك الفترة .. واذا كان الشاعر يعني نفسه فلا استطيع مناقشته .. لان الاقتناع عملية نفسية لا تؤرخها الوقائع فهو اذن أعرف بنفسه وليس من محك في هذا غير النيات . الا ان الثورة كانت قد اصبحت « عمل » الكثيرين من الاحرار .. وليس « اقتناعهم » فقط قبل ذلك بعهد طويل ..

.. والشاعر على اية حال ، لا يعرف بهذا ، فليس هو على علم به فحسب .. بل هو ممن اسهموا في بناء تلك القضية التي اصبحت اليوم تعد بخمسة ملايين من البشر ـ بجهد غير مجحود .. وهذا هو ما يجعلنا على يقين من ان عملية التبرير التي جرت خطأ الى مثل هذا اللبس غير المقصود !..

على اية حال نحن الان حيال عمل ادبي رائع .. تهديه اليمن الجديدة للقاريء العربي وهو الطلعة الى كل اثر عن ذلك الجزء المنسي من وطنه الكبير .. ان الزبيري ينطلق من هذا الديوان عملاقا يصافح الذري الشم من شعراء العربية بمثل قوله :

اضلني وهم شعر كنت انسجه
شعرا يحول قلب الصخر الحانا
وهالني شؤم ما استكشفت من جثث
قد كنت احسبها من قبل تيجانا

فرحت اشعل بالقيثار مقبرة الموتى وانفض اغلالا واكفانا
اصبو الى امتي حبا وابعثها
بعثا وابني لها بالشعر بنيانا
اصوغ العمي منه اعينا نزعت
عنه وانسجه للصم اذانا
وما حملت يراعي خالقا بيدي
الا ليصنع اجيالا واوطانا
يخاله الملك السفاح مقصلة
في عنفه . ويراه الشعب ميزانا
فهاك يا امتي روحا مدللة
عصرتها لخطاك الطهر قربانا
كاسا من الشعر لو تسقى الشموس بها
ترنحت .. ومشى التاريخ سكرانا

ان الزبيري شاعر ملء نفسه كما يقولون .. وهو ايضا ملء تاريخه الحافل بالاحداث ، وقد عرف كيف يجعل من شعره الجميل القوي انعكاسا حيا ومؤثرا ، لتلك الحياة وتلك الاحداث ، حتى لتكاد تجد في شعره جل احداث بلاده وهمومها ، منذ تفاعل معها . ونظرة الى عناوين القصائد ، في الديوان ، تقف بالقاريء على اهتمامات الشاعر .. فمن « كفر وايمان » الى « شعب متربص » الى « الام من الزائف » الى « بوادر ثورة » الخ ..

وشعر الزبيري على العموم ، يمت الى شعر الفحول من شعراء العربية في عصورها الزاهية ، باوثق الصلات ،فهو واضح المعنى ، مصقول العبارة ، متين السبك ، رائع الاداء يزخر بالحكمة العميقة ، والنظرة الملهمة .. والخاطر الشارد ...

وكم جاس شعري غاب ليل تحيط بي
مضرجة ادغاله ، ومساربه
وصور زهرا . ربما كان زخرفا
علي واذ فتشت ما انا حاطبه
وكم كان ذعري عندما اشرق الضحى
علي واذا فتشت ما انا حاطبه
واذ اسفر الوجه الذي بت هائما
به فرمتني بالدواهي عواقبه
وماذا علي من صور الشيء ظاهرا
اذا اختبات خلف الطوايا مثالبه
ولكنه قد يقتل المرء نفسه
اذا اختار صلا في الظلام يداعبه
احق بناب الوحش من بات عنده
واحمق من ذي جنة من يصاحبه

فهذا اسلوب كلاسيكي رائع يشدك بمثل الروعة التي ياسرك بها المتنبي ، والرضي ، وابو تمام .. وبالطبع فان الزبيري يعيش عصره . ولذلك فان شعره يزخر ببعض معاني هذا العصر ومضامينه فيزيد ذلك من قيمة الشعر ويضاعف من فخامته .. فهو هكذا يقول :

لنمت او نعش على الارض احرارا،ولا عاش من يسيغ الاهانه
ان شعبا يرضى الحياة سجينا . لا يساوي في قيمة سجانه
وحياة تصان بالهون والاذلال .. ليست خليقة بالصيانة ..
كل شعب محا اساطيره السود ووارى تحت الثرى اوثانه
قد تلاشت كل العصور الذليلات وبادت كل الشعوب المهانه
واستحالت عبادة الناس للناس ، وامسى حمل القيود خيانه

ولن يعدم القاريء في كثير من القصائد الصورة الواضحة لمثل تلك المضامين التي اشرنا اليها ، وانما يجب ان نحدد ذلك بالمعاني الكبيرة .. كتلك التي نقلت مركز الاهتمام من الملوك والقادة الى الشعب .. ومن الافراد الى الجماهير ، فلنستمع اليه في هذا التقديس الجميل :

هو الشعب حق مشيئاته صواب ورشد خطيئاته
له نبضنا واحاسيسنا فما نحن الا نباتاته
له دمنا وله دمعنا يغذي عليه ويقتاته
يحطم بالموت زهر الحيا ة منا لتصلب شوكاته
ويقصف عمر الحمام الود لتحيا وتكبر حياته
ولكنه في المجال البعيد تعلو على الظلم راياته
وتقتلع الشر خيراته .. وتبتلع الكل غايا ته

وهذا دون شك احد معطيات الفكر الانساني في شكله العام .. اقول ذلك لئلا يذهب القاريء فيفتش في هذا الديوان عن ظلال لهذا المذهب او ذاك من هذه المذاهب المستحدثة او الجديدة على ادبنا العربي فما أعتقده يصيب شيئا من ذلك . هنا في هذا القصيد المستلهم من وضوح الصحراء العربية وحرارة شمسها وشموخ قمم الجبال اليمنية المتوجة بالسماء .. اكثر من استلهامة انسان تلك الرقعة بابعاده ومنطوياته .. ان شعر الزبيري مشدود الى الارض التي احبها اكثر مما هو الى الانسان الذي عني به ..

والزبيري ، وان حصر اهتمامه بقضية بلاده ، الا انه يغني الاحداث العربية، ويربطها بقضية بلاده ، التي لامناص من ان تتاثر بها وتؤثر فيها .. كذلك غنى لثورة « ١٤ تموز » في العراق ولم ينس ان يذكر احرار بغداد ان انتصارهم لن يتوج الا اذا انتصر احرار اليمن :

كم ذبحنا وكم جلدنا بصنعاء لكيما يرضى بلاط الرشيد
انهم يؤمنون بالهدف الجامع والعرش والمصير الوحيد

واذن فثورة الاحرار في العراق هي ايذان بثورة اخوانهم في اليمن . وعلى هذا يخاطب الشاعر ثورة بغداد :

يا حياة هبت لنا من سعير يا سعيرا فارت لنا من جليد
يا امنينا ونجوى هوانا يا اناشيدنا ليوم الخلود
كنت بالامس ليلنا البائس الباكي.. ورعب الكرى وذل القيود
كنت حلف العدو يرهبنا منه ويحظى فيه بركن شديد
كنت عضوا لم ندر كيف نداويه ونقضي فيه برأي.. سديد
ان غفونا سرى لنا الداء منه او بترنا .. عشنا بجسم قعيد

الى ان يقول :

ضربة من مشيئة الشعب بالسوط.. ازالت شواهقا من حديد
غضبة عبقرية ذهل العالم من حسمها الرهيب .. الشديد
كتبت للتاريخ درسا يعيه الصم .، والبكم من طغاة العهود
ومن اليوم سوف يرتجف الطغيان من انة الحزين الشريد
ومن اليوم سوف ترتعد الذرة .. في كف كل عات مريد
جزعا ان تمسها غضبة الشعب .. فتخبو نار السلاح المبيد

ولعل افضل ما في القصيدة .. تلك النظرة التي حاولت ان تتبين الشر في اساسه .. وشموله بالنسبة للقضية العربية كلها . وما اخال الشاعر الا قد وفق توفيقا رائعا حين قال :

شر ما يقتل العروبة اوثان .. نربي طغيانها في المهود
ونغذي فيها الوهية الافك .. ونعنو لسخفها بالسجود
ونريها بانها الرمز للعليا .. بلا عليا ولا مجهود
تقتل الشعب.. او تخون فلا تسمع غير التقديس والتمجيد

هو اذن يسجل موقفه ، كشاعر عربي .. غير مكتف بابداء رأيه في هتاف بلا معنى ! واذا كان هذا الديوان لا يضم غير قصيدة وابيات من قصيدة بالنسبة للقضايا العربية فلا يعني ذلك ان الشاعر لم يغن بغير هذين الحدثين ، ولكن ذلك هو ما نشر فحسب .. ولست ادري لماذا اكتفى الشاعر فقط بهذا القدر مع انه قد غنى لاكثر من حدث عربي شعرا جميلا .. ولا بد من ان يلام الزبيري لسكوته تجاه الحدث العربي في الجزائر : فالثورة الجزائرية ثورة انسانية كما هي عربية كما هي جزائرية ، ولها من اجل ذلك حق على كل مكافح في سبيل الحرية ، او ليست

قضية الحرية واحدة في العالم ؟ ففيم اذا صمت الشاعر تجاه هذا الحدث الذي اهتز له كل قلم حر ولسان شريف؟ كذلك من خقنا ان نسأل الزبيري الشاعر الثائر أين نصيب الكفاح في جنوب اليمن المحتل ؟ ان شعبنا في الجنوب يخوض معركة مصيرية من انبل واشرف معارك الحرية مع قوى الاستعمار الغاشم فهل يجوز لشاعر يمني ان يلزم الصمت تجاه ذلك ؟ ان الثورة على الطغيان لا يمكن ان تبرر عدم الثورة على الاستعمار باعتبار ان كلا الثورتين هي في حقيقة الامر ثورة واحدة . وعلى ذلك فسنظل ننتظر ان ينشر الزبيري وهو الشاعر الثائر نصيب الجنوب من فنه وشعره او الوفاء بذلك ان لم يكن قد فعل .

* * *

لعل أبرز واجمل ما في الديوان تلك المواقف الحزينة والباسله التي سجلها الشاعر على تفاوت في النجاح من الناحية الفنية .. منذ وقف على اشلاء ثوره الشعب الكبرى عام ١٩٤٨ ليرى في مصرعها الفاجع ، في غمرة الحزن ... مصرعا للشعب « فيرثيه من مصرعه، ويبعثه من مرقده » :

ما كنت احسب اني سوف ارثيه
وان شعري الى الدنيا سيرثيه
وانني سوف ابقى بعد نكبته ..
حيا امزق روحي في مراثيه
فان سلمت فاني قد وهبت له
خلاصة العمر ، ماضيه وآتيه
وكنت احرص . لو اني اموت له
وحدي فداء ويبقى كل من فيه
لكنه اجل يأتي لموعده
ما كل من يتمناه ملاقيه
وليس لي بعده عمر ، وان بقيت
انفاس روحي تفديه وترثيه
فلست اسكن الا في مقابره
ولست أقتات الا من مآسيه
وما انا منه الا زفرة بقيت
تهيم بين رفات من بواقيه

ولكن النواح ليست سمة هذا الشاعر الفحل ... انما هو في الحقيقة شاعر قوة ، فعاشية الحزن ما تلبث ان تنقشع فاذا به يحول تلك الاحزان الى مجراها الطبيعي لتصبح قوة وغضبة وتمردا ... وهذه مقتطفات من قصيدته الرائعة « كفر وايمان » :

كفرت بعزمتي الصامده وقدسية الغصبة الحاقده
وانات قلبي تحت الخطوب واحلامه الحية الصاعده
وعمر شباب نذرت به لشعبي واهدافه الخالده
وبالشهداء وارواحهم ... تراقبني من عل شاهده
اذا انا أيدت حكم الطغاة وهادنتهم ساعة واحده

* * *

كفرت بعهد الطغاة البغاة وما زخرفوه وما زيفوه
واكبرت نفسي عن ان تكون عبدا لطاغية توجوه
وعن ان يراني شعبي الذي يعذب عونا لمن عذبوه
أأجثو على ركبتي خاشعا لجثة طاغية حنطوه ؟
أألعقه ـ خنجرا .. قاتلا ـ لشعبي واكثر فيه الولوه؟

انا ابن لشعبي، انا حقده.. الرهيب انا شعره انا فوه

* * *

سأمضي عنيدا فلا انثني واحيا كريما.. فلا انحني
وارفع نحو السما جبهتي كما ارتفعت جبهة المؤمن
اموت خميصا،ولا اقبل الفتات .. من القاتل المحسن
أأطعم من قاتل .. امتي أرى الدم في كفه المنتن
يقدم لي طعم شاو شهيد من اخوتي لحمه او بني
تكاد اللقيمات من لحمه تقول لاكلها : خنتني

* * *

ولا اعتقد ان احدا لا تأخذه الرعدة لمثل يقظة الضمير هذه التي ترى في مهادنة الطغاة ما يراه هذا الشاعر حين قال :

أأطعم من قاتل امتي ارى الدم في كفه المنتن

ثم أية صلاة خاشعة تنضح بالايمان المطلق بالشعب هي هذه الصلاة :

هو الشعب حق مشيئاته صواب ورشد خطيئاته
له نبضنا .. واحاسيسنا فما نحن الا نباتاته

* * *

في اعتقادي ان العربية تظفر بشاعر عملاق سخي العطاء .. في الزبيري .. هو كذلك لو لم تنازعها فيه السياسة التي فرضت نفسها عليه ، فاثقلت كاهله ... فعبر سنين طويلة من الكفاح المرير على الصعيد السياسي كان الزبيري هدفا لكفاح من نوع اخر بين السياسي فيه والاديب ، ولكن هموم السياسه قد حدت من اشواق الاديب وشخص السياسي قد تغلب فيه ـ وليس كليا ـ على شخص الشاعر وهذا ما نجده فعلا في بعض نتاجه الاخير . ولكن يجب ان نؤكد بأن ذلك ليس دائما لئلا يؤخذ القول على تعميم لم نقصده .

ونحن نستطيع ان نجد شيئا من ذلك على سبيل المثال في قصيدته « خطبة الموت » وانما نقتطف منها كما يتفق ، فالشاعر بعد تناول شاعري جميل لمغزى رحلة الامام احمد الى روما يصور فيها كيف التقى الثلاثة الطغاة: نيرون الميت الحي في ظلام الطغيان . وفاروق وثالثة الاثافي احمد .. يعود ليتسائل مشيرا الى علة الاخير :

اين القى بروحه يوم دبت في شرايينه سموم المنيه؟
كاد يلقى الاله وهو طريح بين افرنجي وافرنجيه.

فما في هذا ؟ ان المغزى السياسي واضح هنا ولكنه كان على حساب الشعر : فنيته وروحه ..

ثم يعلق الشاعر على مرور الامام ببورسعيد وعدم نزوله الى مصر قائلا :

عاش في رومه شهورا ولم ينزل الى مصر ساعة من عشيه
واتقا بالافرنج لكنه سيء ظن بالدولة العربيه

وهذا كلام جميل في تعليق .. في صحيفة . ولكنه ليس شعرا . ولا يصلح ان يكون شعرا على هذا النحو .. فاذا تناول الشاعر بعض الاحداث العنيفة التي حدثت خلال تلك الفترة فلكي يسجل موقفه كسياسي .. مكافح:

ـ التتمة على الصفحة ١٢١ ـ

ثورة الشعر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٥ ـ

نحن نستنكر الحريق.. ولا نرضى بعنف الحوادث الدموية غير انا نطالب الشعب ان يكشف.. فيها دور الايادي الخفيه ويسير التحقيق حرا ويجلو كل سر في العلة الاصليه
اسألوا الجيش عن مآس كبار بعثت فيه روحه الثوريه
واسألوا عن تمرد فوضوي خارج عن قواعد الجنديه
اسألوا الفرد هل له ضابط يملك .. فرض الاوامر العسكريه
اكشفوا الواقع الرهيب.. تروا الجيش بلا ضابط ولا امريه

هذه خطبة مثيرة ولكن ليس هذا سبيل الشعر .. فليس مهمة الشعر ان يصور مأساة الجندي مثلاً بمثل هذه التقريرية ، انما يكون ذلك في ابراز هذه المأساة من خلال صورة موحية تدل عليها .. افضى اليها سياق يكون قد مهد لها بطريقة فنية محكمة تحول دون اتضاح جفاف الموضوع .. فاذا لم يكن الشاعر قد تناول هذا الموضوع على حساب الشعر فانه على حساب فنيته بالتأكيد..

على ان ذلك قد يبدو بصورة اوضح في مقارنة لموقف الشاعر من قضيتين : اولاهما :« فجيعة الاحرار بانبعاث روح الطغيان بعد مصرع الطاغية وتحول الجماهير الى وحوش تفترس منقذيها » ، وذلك عقب فشل ثورة «٤٨». والثانية : العنصرية التي اثارها اعداء الشعب في الفترة الاخيرة ، بالذات ، من عهد الطغيان ..

فاننا نرى الشاعر قد استطاع ان يتناول القضية الاولى باسلوب شاعري مبدع .. وهو مع ذلك ملتزم بالموضوعية ، فاستطاع ان يظفر بالحقيقة ـ كما يقرها البحث ـ ويجلوها في اسلوب من الشعر الموحي ـ الذي يزيد من نفاذ الحقيقة . فكم هو ضلال التركيز على دور الطغاة في صنع المأساة دون التركيز على دور الشعب نفسه في صنع الطغاة قـ « لو عرف المكافحون ان الطغاة سلالة طبيعية لاخلاق الشعب لما عجبوا ولا تعثروا » :

رب هذا الامام اشلاء مقتول .. وهذا قبر وهذا رغام
ورحاب الجحيم يصنع فيها كل شيء من اجله ويقام
ويحه ما له غبي .. عنيد ليس يدري ان الحمام حمام
يعجب الموت انه لم يمت منه .. ولم ينج من اذاه الانام
وزعت روحه على الارض يرتا ع اليمانون منه حيث اقاموا
فاذا بالحياة شنعاء فيها كل شيء .. وكل شخص امام

* * *

انا راقبت دفن فرحتنا.. الكبرى وشاهدت مصرع الابتسامه
ورأت الشعب الذي نزع القيد ، وابقى جذوره في الامامه
واذا بالطبول عادت طبولا واذا بالفطيم يلغى فطامه
واذا بالدستور يصرعه البغى .. ويلقى كصانعيه حمامه
واذا الشعب بعدما حطم الاصفاد عنه لم نلق الا حطامه
نحن شئنا .. قيامه لفخار فاراه الطغاة هول القيامه

فهذا شعر . وشعر رائع .. مجنح ، ولكن اليس عطاؤه هو عطاء البحث العلمي في الجانب الاخر ؟ لقد وفق الشاعر كل التوفيق هنا . وهذا هو سبيل الشعر في معالجته لمثل هذه القضايا .. وستظل هذه القصيدة نافعة ليس لنا فقط .. ولكن لكل من يتطلع الى التغيير الثوري .. فما اخطر ما يجره تجاهل دور الشعب في صنع الطغاة .. ان هذه الحماقة تجعل من أي شعب مستعدا لاعادة الدور دون ان يدري ...

ولكن كيف عالج القضية الثانية بعد عشرة اعوام تقريبا ؟ يقول الشاعر :

ارضنا حميرية العرق ، ليست ارض زيدية ولا شافعيه
وبنو هاشم عروق كريمات ... لنا من جذورنا اليعربية
انهم اخوة لنا غير اسياد .. علينا في عنصر او مزية ...
ارضنا ارضهم .. تقاسمنا نحن واياهم العلى بالسويه

ان الشاعر في معالجته هذه ، قد اخطأه التوفيق .. ذلك لانه اما ان يعالجها من الناحية الفنية ، وهنا يهتم بالصورة التي تنتج عن هذه التفرقة ، وبقدر ما تكون هذه الصور مؤثرة ومعبرة يكون نجاح تلك المعالجة .. وتلك هي الطريقة المثلى بالنسبة للشعر في معالجة هذه القضايا ... اما اذا اعتمد العلم في تلك المعالجة ـ كما فعل الشاعر ـ فهنا يجب الالتزام بموقف من هذه القضايا .. وهو ما اهمله او تساهل فيه شاعرنا . فالزبيري عندما يرى بأن اليمن حميرية العرق ، اسلامية الدين ، وان بني هاشم عروق كريمات اخوية تقاسمنا نحن واياها المعالي والديار ، انما يقع في الخطأ .. ذلك لانه يعترف اساسا بوجود عرقين ثم يرفض اي عداء بينهما .. بينما العلم يرفض ـ بصرامة ـ ذلك الاساس ... فالقول بحميرية العرق هو كالقول بفرعونيته او آشوريته .. وكل ذلك خطأ ليس بالنسبة لاعتبارات القومية فحسب ولكن بالنسبة للعلم .. فلقد فرغ منذ زمان بعيد من هذه القضايا . وليس هنالك خلاف بين علماء الجنس البشري في ان دلالة العرق لا يمكن ان تعني بها امة من الامم .. حتى لا يمكن علميا ان يقال العرق العربي ، وانما هناك اصطلاح متفق عليه باطلاق العرق على الاصول الكبيرة كالارية ونحوها مثلا مع العلم انه حتى في هذه الحالة اصطلاح اضطر اليه العلماء للاشارة الى تلك الاماد الموغلة اضطرارا لم يكتموا اشمئزازهم منه لما تنطوي عليه هذه الكلمة من معان لفظها تطور العقل البشري تماما (١) .. والشعر حر في اساليبه ولكن شريطة الا يجني ذلك على الحقائق العلمية الثابتة .. ولذلك كانت له طريقة تختلف عن طريقة العلم واسلوبه .. فالشاعر العربي القديم عندما تناول مثل هذا الموضوع قال :

كونوا جميعا يا بني اذا اعترى
خطب ولا تتفرقوا افرادا
تأبى الرماح اذا اجتمعن تكسرا
واذا افترقن تكسرت احادا

فهذا التفات الى النتائج المباشرة .. وهنا يستطيع الشعر ان ينجح ويوفق .. ثم ان تلك الطريقة في معالجة مثل هذه القضايا لم تعد صالحة اليوم .. اي لا يمكن ان نواجه التفرقة العنصرية التي تهب رياحها على الشعب لغايات لم تعد خافية ـ بمثل الطريقة التي كانت تعالج بها القيسية والمضرية قديما .. انما نحن اليوم نملك وسائل الحسم بفضل تطور العقل البشري . فليس هنالك عرق صاف . تلك احدى حقائق العلم الثابتة ومن هنا فليس ثمة في الواقع حميريون او قحطانيون كما ليس ثمة هاشميون ولا عدنانيون ، وانما هناك يمنيون . فمن غير المحتم ان يكون اليمني او الحجازي ابنا لقحطان او عدنان كما ليس شرطا ان يكون اللبناني فينيقيا .. وذلك من ناحية اخرى كالقول بان المصري يجب ان يكون ابنا لتوت عنخ آمون مثلا !. وهو قول مضحك في كل الحالات

---

(١) راجع « العنصرية والاعراق » ليحي حقي ..

.. وماذا يجري في العالم لو بنيت حقوق المواطنة على السلالية ؟ ان الاوطان ستمحى تماما . وسيصبح كل بيت وطنا ودولة لان الشعب لن يكون الا الاسرة فقط ..

وانما كل ذلك في الادب رمز للانتماء جميل ، فالشاعر العربي في بيروت او في القاهرة او في بغداد يفخر بقحطان او نزار او عدنان وهو انما يعني شيئا واحدا هو : الانتماء العربي ، وعلى هذا فان الزبيري عندما يقول : نحن شعب الى النبي مبادينا .. ومن حمير دمانا الزكية

وعندما يقول :

ارضنا حميرية العرق ليست ارض زيدية ولا شافعيه

.. يقول حقا ويقول شعرا .. بصفة ذلك رمزا للانتماء الى اليمن .. ولكنه يقع في الخطأ عندما يقول :

وبنو هاشم عروق كريمات .. لنا من جذورنا اليعربية

لانه يعترف في الاساس بوجود عرقين وهو الاساس الذي يستند اليه دعاة التفرقة ، ترى ماذا يحدث لو صنفنا الامة العربية على الدلالة السلالية لتلك الاسماء ؟ وحاولنا ان نفرزهم : هنا غساسنة اذن فليسوا سوريين وهنا اوس وخزرج اذن فليسوا حجازيين .. وهنا عدنانيون اذن فليسوا يمنيين الخ .. والقومية العربية .. اين سيكون مكانها من هذا كله ؟ ومع ذلك ففي اليمن الوطن الام للعروبة من لا يزالون يعتقدون انهم هاشميون وانهم قحطانيون .. ومن يجهد جهده في ان ينفخ في النار على هذا الاساس ..

واذا كان الشاعر الوطني الحر ، في هذه القصيدة ، قد اخطأه التوفيق فانما هو خطأ في التفسير من الناحية العلمية ، وفي الطريقة من الناحية الفنية .. اما في النتيجة فقد وفق على كلا الحالين وهذا من الناحية العملية هو المهم .. فلقد وقف ليصفع تلك الفئات بقوله : والمزايا في الشعب للبعض .. دون البعض سم الاخوة القوميه انها الامتيازات : هذا هو بيت القصيد ، المستغل والمستغل هذه هي المشكلة .. ولا حاجة بعد ذلك لاي تفسير اخر لحقيقة المأساة .

وفي الحق ان الشاعر قد وقف في وجه هذه المشكلة وقفة المناضل المتفاني في حماية بلاده من اضرارها ... بكل طاقته .. وانما نحن نشير هنا الى طريقة الشاعر في معالجة هذه القضايا لا الى موقفه منها .. ولعل المقارنة السالفة قد اعطتنا صورة واضحة لطريقة الشاعر في تناول قضاياه .. من الناحية الفنية قوة وضعفا .. في الماضي والحاضر .. ولعلها تعزز ما ذهبنا اليه .

وبعد .. فان الزبيري ما يزال مطويا على كنز ثمين .. ولقد اصبح حقا عليه ان يخرج الى النور بقية دواوينه الكثيرة ، ليعرف الناس اي شاعر مبدع اهدته ارض بلقيس للعربية الخالدة ... وان « ثورة الشعر » ليكشف عن وجه اصيل لليمن .. وانا على يقين من ان القارىء سيجد فيه كثيرا من خصائص الروح الثورية العربية الاصيلة في ثوب من الشعر الذي عزّ له اليوم النظير .. وانه سيسعد باشراق الاسلوب الكلاسيكي المؤثر والمضمون الحي الثائر دون ان يجني احدهما على الاخر في الاعم الاغلب .. ويشرب مع الشاعر :

كأسا من الشعر .. لو تسقى الشموس به
ترنحت ، ومشى التاريخ سكرانا

قاسم علي الوزير

مطابع

دار الاندلس

بيروت ـ ص.ب ٤٥٥٣٠

تعلن عن استعدادها التام لطبع جميع انواع الطباعة من الكتب او الصور الفنية الملونة باحدث الالات الاوتوماتيكية وذلك باشراف خبراء فنيين مارسوا الطباعة الفنية زمنا طويلا

المطابع مستعدة لطبع أي كتاب لمؤلف عربي ولديها لجنة خاصة للتصحيح والاخراج الانيق

باسعار معتدلة